

## لهجة تميم وبعض خصائصها - ١ -

لقد أتيح للغة قريش أن تتبوأ المكانة الأولى بين اللهجات العربية الشمالية، فأصبحت هي الفصحى المقصودة عند الإطلاق، وكان على اللغويين القدامى أن يعنوا بها عناية خاصة، ويفضلوا نطقها ورسمها وإعرابها ووضعها واشتقاقها، فلم تحظ اللهجات العربية الباقية منهم إلّا بالقليل من أبحاثهم. فلندع الحديث عن لهجة قريش جانباً، فقد أشبعها علماءنا بحثاً، وقد زادها نزول القرآن بها مكانة ومجدّاً؛ ولندرس لهجة تميم بين مجموعة اللهجات النجدية الشرقية؛ لنحاول إلقاء بعض الأضواء عليها، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض خصائصها ومزاياها.

إن في المصادر القديمة والمعجمات اللغوية ما يشير إلى أن كثيراً من قواعد اللهجة التميمية أقوى قياساً من بعض القواعد القرشية، بل فيها ما يكاد الباحث يستنتج منه باطمئنان أن لهجة تميم كانت في كثير من مفرداتها وتراكيبها هي التي ينطق بها غالباً أبناء اللغة العربية، فهذا سيبويه يذكر كيف يراعي التميميون القياس في كسر أوائل الأفعال المضارعة، ويقرر بوضوح أن "ذلك في لغة جميع العرب إلّا أهل الحجاز"؛ ويؤكد ابن منظور في "لسان العرب" نسبة هذا القول إلى سيبويه في العبارة الآتية: "وزعم سيبويه أنهم يقولون: تَقَى الله رجلٌ فعل خيراً، يريدون: اتَّقَى الله رجل، فيحذفون ويخففون، وتقول أنت: تَتَّقِي الله، وتَتَّقَى الله، على لغة من قال تَعْلَم وتَعْلَم. وتَعْلَم - بالكسر - لغة قيس وقيم وأسد وربيعة وعامة العرب، وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون: تَعْلَم، والقرآن عليها.

وفي الباب الذي يعقده ابن جني في "خصائصه" لتعارض السماع والقياس، يعترف بأن التميمية أكثر مراعاة للقياس من القرشية، ويبين الفرق بين ما كان أقوى قياساً وما كان أكثر استعمالاً، فيقول: "وإن شذ الشيء في الاستعمال وقوي في القياس، كان استعمال ما كثر استعماله أولى، وإن لم ينته قياسه إلى ما انتهى إليه استعماله".

و من ذلك اللغة التميمية في "ما"، فهي أقوى قياساً وإن كانت الحجازية أيسر استعمالاً، وإنما كانت التميمية أقوى قياساً؛ من حيث كانت عندهم كـ "هَلْ"، في دخولها على الكلام مباشرة، فكل واحد من صدري الجملتين الفعل والمبتدأ، كما أن "هَلْ" كذلك إلّا أنك إذا استعملت أنت شيئاً من ذلك فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله، وهو اللغة الحجازية، ألا ترى أن القرآن بها نزل! وأيضاً فمتى رابك في الحجازية ريب من تقديم خبر، أو نقض لنفي، فزعت إذا ذاك إلى التميمية، فكأنك من الحجازية على حرد، وإن كثرت في النظم والنثر.

وهذا الذي ذكره ابن جني عن "ما" التميمية، وكونها أقوى قياساً من الحجازية، وهي فوارق ذات بال، يحسن أن تجمع وينبه عليها، فمن المعلوم أن النحاة يقسمون ما "النافية" إلى حجازية وتميمية،

فالخبر في الحجازية منصوب، بينما هو في التميمية مرفوع، والقرآن في قوله "ما هذا بشرًا" جاء طبعًا على لهجة الحجاز، ويقرب من هذا الخلاف الإعرابي ما دار حول خبر ليس، إذا اقترن "يالاً"؛ فتميم ترفع هذا الخبر حملًا "ليس" على "ما النافية" على حين تنصبه قريش إطلاقًا، فالتميميون يقولون: "ليس الطيب إلا المسك"، وأما أهل الحجاز فيقولون: "ليس الطيب إلا المسك".

ولا مدافعة في أن اللحن الخاص يتعذر تركه في تمييز كم الخبرية، فإنه منصوب وجوبًا في لهجة تميم، فهي تقول: كم حربًا خضت، وكم فارسًا جندلت؛ بينما يقول الحجازيون: كم حربٍ وكم فارسٍ.

وهذا يفسر لنا ما دار من الجدل النحوي العقيم حول بيت الفرزدق -وهو كما نعلم تميمي: كم عمة لك يا جرير وخالة.

فإن من رواه بالنصب لاحظ أن الفرزدق إنما لحن بلحن قومه، ومن رواه بالجر أراد أن يؤكد أن جميع الشعراء، من أية قبيلة كانوا، يلتزمون النطق بلهجة قريش؛ لا يماهم بأنها أفصح اللهجات العربية.

على أننا -بلا ريب- ما كنا لنعرف بعض الفروق بين لهجتي الحجاز وميم لولا التزام بعض التميميين لحنهم الخاص لدى نطقهم بألفاظ معينة.

من ذلك أن لهجة تميم تنبر الهمزة، أي: تحققها وتلتزم النطق بها -يشاركها في ذلك أكثر البدو- على حين يسهل الحجازيون الهمزة ولا ينبرونها إلّا إذا أرادوا محاكاة التميميين استلطافًا لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم، قال أبو زيد: "أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون، وقف عليها عيسى بن عمر فقال: ما آخذ من قول تميم إلّا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا".

ومعنى نبر الحجازيين عند الاضطرار، خروجهم من سليقتهم في تسهيل الهمزة في غير لهجات خطابهم العادية، لشهورهم بأن تحقيق الهمزة في الأساليب الأدبية من شعر وخطابة أقرب إلى الفصاحة من تسهيلها، وجاء نزول القرآن بنبر الهمزة دليلًا على أن اللغة المثالية كانت قبل الإسلام قد استحسنت في هذا لحن تميم فاقتبسته واتخذته صفة من صفات نطقها الفصيح، ولكن الإسلام -جريًا على عادته في التخفيف على القبائل ومراعاة لهجاتها- لم يلزم أحدًا بتحقيق الهمزة، وإن التزمه في الوحي، فمالت قراءات أكثر الحجازيين إلى التسهيل لا النبر، كما هي الحال في قراءة نافع وأبي جعفر من أشهر قراء المدينة، فإنهما يقرآن: "وَيَسِّرَ الْمِهَادَ"، وقوله تعالى: "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا"، وقوله تعالى: "خَاسِيًا وَهُوَ حَسِيرٌ".

وفي بعض القراءات الشاذة غلو في نبر الهموزة في مثل "رَبِّ الْعَالَمِينَ" ٦، بل تجاوز القراء الحدود حين قرءوا بهمزة مفتوحة مثل: "كَعَصَفٍ مَأْكُولٍ"، وبهمزة قبل الحرف المشدد في "وَلَا الضَّالِّينَ". فيه لهجة تميم .